ثلاثية نجيب محفوظ

للدكتور ماهر حسن فهمى
المدرس بقسم اللغة العربية

جوهر ثلاثية نجيب محفوظ يتركز فى حياة أسرة من الطبقة الوسطى، تتبعها فى ثلاثة أجيال متعاقبة . وقد كان فى الواقع يصور مجتمعنا فى ثلاث مراحل من حياته ، من خلال اختياره لهذا القطاع . وأصحاب الواقعية يشترطون أن تكون أحداث القصص من المستندات التاريخية[1] . وفى الحقيقة « لا فرق بين الواقعيين والطبيعيين إلا فى المبدأ الذى تمسك به زولا فى الانتهاء فى القصص إلى نتائج أيدها العلم من قبل »[2] خاصة علم الوراثة ، كما وضح فى سلسلة قصص « زولا » الطبيعى عن أسرة "Rougon-Macquart"[3]

وقد عرض الدكتور لويس عوض فى مقالتين له لثلاثية نجيب محفوظ، وتتبع بعض مظاهر الوراثة فى الشكل وفى الطبع ، تتبعاً دقيقاً رائعاً ، ينتهى به إلى قوله : « وهذا هو المقصود بالحتمية العلمية فى عرف أدباء المذهب الطبيعى ، أى حتمية الوراثة والبيئة . إن زواج عبد الجواد وهنية كزواج الأرانب أو فيران المعمل ، ما كان ليثمر غيرما أثمر ، ونتائج التجربة الفنية، لا يمكن أن تختلف عن نتائج التجربة العلمية[4] » .

---

(١) الروايات الواقعية فى القرن التاسع عشر لمحمد غلاب ص ٨٠ .
(٢) الأدب المقارن لغنيمى هلال ص ٣٩٤ .
(٣) راجع :
L'Epoque Réaliste et Naturaliste Par R. Dumesnil, P. 433
(٤) صفحة الأدب بالأهرام ١٩٦٢/٤/٢٧ .

كل هذا حق ، وهو يؤيد تأثر نجيب محفوظ بالمذهب الطبيعى فى القصة ، ولكن تتمة هذا الحق هو تأثر نجيب محفوظ بالمذهب الواقعى أيضاً تأثراً واضحاً كبيراً ، على عكس ما انتهى إليه الناقد لويس عوض فى إحدى مقالتيه حين قال :

« وعندى أيضاً أن أكثر أشخاص (بين القصرين) و (قصر الشوق) و (السكرية) ليسوا مجرد أشخاص عاديين سواء فى طبقتهم أو فى المحيط البشرى الكبير ، فهم إذن ليسوا نتاجا من نتاج الفن الواقعى ».

ولكن يبدو أن نجيب محفوظ قد تنبه إلى أن اعتماده على المذهب الطبيعى وحده سوف يوقعه فى مبدأ الجبرية الذى يؤخذ على أصحاب هذا المذهب ، بحيث يصبح الفرد آلة يحركها علم الوراثة ، ولا سبيل إلى أن يغير من واقعه الموروث . ومن هنا أخذ يزاوج بين المذهب الطبيعى والمذهب الواقعى فى ثلاثيته .

وبطل قصة «بين القصرين» هو السيد أحمد عبد الجواد ، وهو شخصية مهابة فى بيته نسمعه يقول لزوجته : « أنا رجل ، الآمر الناهى ، لا أقبل على سلوكى أية ملاحظة وما عليك إلا الطاعة ، فحاذرى أن تدفعينى إلى تأديبك » . بين القصرين ص ٩ .

وجلسته مع أبنائه على قصرها شديدة الوطأة عليهم بما فيها من تزمت وصرامة من جانبه ، ووقار ورهبة من جانبهم . فهل كان هذا الرجل — الذى عاش أول هذا القرن — شاذا بين الرجال فى وقته ؟ كلا بل هو صورة صادقة حية بما فيها من دقة شديدة ، لرجل أول القرن فى مجتمعنا . وإذا أردنا نصاً يثبت ذلك وجدناه عند « أحمد أمين » فى مقالته « سلطة الآباء » حين يقول : « رحم الله زمانا كان الأب فيه الآمر الناهى ، والحاكم المطلق ، والملك غير المتوج ، ينادى فيتسابق من فى البيت إلى ندائه ، ويشير فإشارته

أمر ، وطاعته غنم ، تحدثه الزوجة فى خفر وحياء ، ويحدثه الابن فى إكبار وإجلال ، من سوء الأدب أن يرفع إليه بصره أو يرد عليه قوله أو يراجعه فى رأى ، أو يجادله فى أمر . أما البنت فإذا حدثها لف الحياء رأسها وغض الخجل طرفها ، قليلة الكلام متحفظة الضحك ، خافضة الصوت . تتوهم أنها أخطأت فى التافه من الأمر فيندى جبينها ، ويصبغ الخجل وجهها »[1] .

ونستمر فى قراءة « بين القصرين » فنجد « فهمى » الشاب يوسط أمه فى أمر زواجه من « مريم » ، ونجد « عائشة » تضحى بمن تحب لأنها لا تجرؤ على أن تناقش أباها فى رأى وإن كان خاصا بزواجها .

فإذا ما أعدنا النظر فى مقالة « سلطة الآباء » سمعنا أحمد أمين يقول :

« وإذا جاء حديث الزواج والزوج فإلى أمها الحديث لا إلى أبيها ، وبالتلويح والتلميح لا بالتصريح ، والأمر إلى الأب فيما يقبل وفيما يرفض وفيما يفعل وفيما لا يفعل ... فإن أحس الابن حاجة ملحة إلى مال ، أو شعر بضرورة ملجئة إلى أكثر مما أخذ ، لم يجرؤ أن يجابه بالطلب ، إنما يحاور ويداور ويلمح ويرمز ، فإن أعياه الأمر وسط الأم لعلها تستطيع أن تعبر تعبيراً أوضح وأصرح ، وقل أن تنجح »[1] .

ولم يكن السيد أحمد عبد الجواد فى حياته كلها صارما متزمتا ، ولكن حياته خارج البيت وعلى الأخص أمسياته . كانت دائماً مترعة باللذات ، تناقض أشد المناقضة حياته فى منزله . « ولكنه كان يصدر فى سلوكه عن طبيعته الخاصة بقلب طيب وسريرة نقية وإخلاص فى كل ما يفعل ، فلم تعصف بصدره عواصف الحيرة وبات قرير العين . وكان إيمانه عميقا ، أجل كان إيمانا موروثا لا دخل للاجتهاد فيه ، بيد أن رقة مشاعره ولطافة

---

(١) فيض الخاطر ج ١ ص ٥٥ .

وجدانه وإخلاصه أضفت عليه إحساسا رهيفا ساميا نأى به عن أن يكون تقليداً أعمى ، أوطقوسا مبعثها الرغبة أو الرهبة فحسب ، وبالجملة كان أبرز ما يتميز به إيمانه بالحب الخصب النقى . بهذا الإيمان الخصب النقى أقبل يؤدى فرائض الله جميعا ، من صلاة وصيام وزكاة فى حب ويسروسرور ، إلى سريرة صافية وقلب عامر بحب الناس ونفس تسخو بالمروءة والنجدة ، جعلت منه صديقا عزيزا يستبق القوم إلى الرى من منهله العذب ، وبتلك الحيوية الفياضة المشبوبة فتح صدره لمسرات الحياة ولذائذها ، يهش للمأكل الفاخر ، ويطرب للشراب المعتق ، ويهيم بالوجه القسيم ، فينهل منها جميعاً فى مرح وبهجة وولع ، غير مثقل الضمير بإحساس خطيئة أو وسواس قلق ، فهو يمارس حقا منحته إياه الحياة ، وكأنما لا تعارض بين حق الحياة على قلبه وحق الله على ضميره ، فلم يشعر فى ساعة من حياته بأنه بعيد عن الله أو عرضة لنقمته . أكان شخصين منفصلين فى شخصية واحدة ؟ أم كان أعتقاده فى السماحة الإلهية بحيث لا يصدق أنها تحرم هاتيك المسرات حقا ، وحتى فى حالة تحريمها فهى حرية بأن تعفو عن المذنبين ما لم يؤذوا أحداً » . بين القصرين ص ٥١ .

والواقع أن أحمد عبد الجواد فى هذا التناقض كان كذلك صورة صادقة لإنسان هذه الفترة فى مجتمعنا . مجتمع اسلامى شرقى بدأت تغزوه حضارة أوربية ، فلابد أن يتردد الناس بين الحضارتين المتصارعتين بالنسبة للفكر وبالنسبة للحياة الاجتماعية أيضاً . فإلى جانب المعاهد الدينية وجدت المدارس الأجنبية ، والى جانب الجرائد العربية وجدت الجرائد الأوربية . وأهم من كل ذلك وجد من المثقفين من يريدون النهضة على أساس تراثنا وتقاليدنا ومن يريدونها غربية خالصة . والى جانب المساجد المنتشرة انتشرت الخمارات حتى تغلغلت الى أعماق الريف كما يحدثنا عبد الله النديم فى « الأستاذ » و « التنكيت والتبكيت » ، وفتحت دور البغاء المرخصة من الحكومة . وكان قصر الخديو يقيم الحفلات الراقصة كل عام واتخذت الحرية وسيلة

للانكباب على اللذات . فبدأت الطبيعة الشرقية السمحة التي عاشت تستنشق دائماً عبق الدين ، بدأت تفتح نوافذها وتطل على دنيا الملذات فلا تملك زمام نفسها : يقول «لوثروب ستودارد» فى كتابه «حاضر العالم الإسلامى» : «أما الشرق فهو فى كثير من مواضع الانقلاب يطفر فى تحوله ، إذ أن مايأخذه عنا ويقتبسه منا دفعة واحدة قد تقضت على تكامله عندنا الأجيال والقرون ، فكانت النتيجة أن غلبت صفة الطفرة لا صفة النشوء المترقى على تطور الشرق ، هذا التطور السياسى والاقتصادى والاجتماعى والدينى وغير ذلك . فاختلطت الجواهر بالأعراض ، وتناقضت البواطن والظواهر ، وبدت أمور وشئون بعضها قبل أوانه ، وبعضها الآخر بعد أوانه ، وفى مدة قليلة طفقت شقة التباين العقلى والخلقى تمتد وتتسع بين أبناء الجيل الواحد . . وربما قام الفرد على نفسه فقاتلت سجيته سجيته وخلقه خلقه[1]» .

وهذا نفسه ما حدثنا عنه إبراهيم سلامه فيما أسماه «قانون المدنيتين»[2] والسيد أحمد عبد الجواد صورة لذلك الجيل المتناقض ، الذى يتحمس بلسانه للديمقراطية ولا يطبقها فى بيته ، ووطنيته وطنية سلبية فى أكثر الأحيان ، فهو قد قنع بالمشاركة الوجدانية دون الإقدام على عمل ما ، وقته خالص لحياته ، وللوطن عواطفه وماله كلما تيسر . فاللهو لا يغير ما بقلوب الرجال . وقد ثار سعد لإسعاد المصريين لا لتعذيبهم ، فلا خجل عند الحزن على نفيه من كأس تخفف الأحزان . بين القصرين ص ٤٠٣ .

هذه صورة واقعية للرجل العربى فى مصر بداية هذا القرن ، بما فى حياته من تناقض اجتماعى ، وبما فى نفسه من تناقض إنسانى . ولكن الجيل التالى كان أكثر تلاؤماً مع نفسه ، جيل «فهمى» الفتى الثائر ، وجيل

---

(١) حاضر العالم الاسلامى جـ ٢ ص ٥ .

(٢) تيارات ادبية بين الشرق والغرب ص ١٤٧/٢٣٧ .

« كمال » الفتى الباكى الحزين . جيل « فهمى » الذى قام بثورة ١٩١٩ فأحس بكيانه الذى أضاعه الاستعمار من قبل ، وجيل كمال الذى أحس بخيبة الأمل بعد أن فشلت الثورة فى تحقيق أهدافها الوطنية العامة ، بعد أن بذلت كل أسرة ما بذلته أسرة « السيد أحمد عبد الجواد » التى قدمت ولدها فهمى قرباناً على مذبح الثورة .

وما من شك فى أن « كمال » هو بطل هذا الجيل فى حياة الأسرة ، وهو أيضاً بطل هذا الجيل فى حياه شعبنا التى اصطبغت بصبغة رومانتيكية بعد ثورة ١٩١٩ ، فاتخذ موقفاً سلبياً شعاره المرارة والانطواء ، انعكس على كل اتجاهاته[1] .

أليس كمال هو الذى يقول عن نفسه : « وقد مل حتى طفح بالملل ، فمتى يدرك قطاره محطة الموت ؟ » السكرية ٢٠٥ .

« سعيد من لا يفكر فى الانتحار أو يتمنى الموت » قصر الشوق ٣٧١

أليس هو الذى استعذب الألم مثلما استعذبه كل الرومانتيكيين حين قال : « شعور واحد يلتقى فيه الألم باللذة كالفجر تلتقى عنده حاشية الليل بأهداب النهار » السكرية ٢٧٢ .

وإذا حولنا بصرنا عن هذا الفتى الرومانتيكى وجدنا الشاعر عبد الرحمن شكرى الذى عاش فى هذه الفترة يعبر عن الآلام التى أحاطت به من كل جانب فلا مفر له منها ، فيتحدث عن رياض من الآلام وعن أزهار من الندم ، وعن اللذة الحزينة التى يجدها قاطفها وجانيها فيقول :

كم جنينا من أزاهير الألم زهرة سوداء من زهر الندم

---

(١) تطور الشعر العربى الحديث فى مصر ص ١٨٨ .

زهرة سوداء من زهر النقم فهى طيف من ممات قد ألم
هذه الأزهار سود كالقضاء فى رياض من شقاء وعناء
ليس لى منها مفر أو نجاء فهى حولى فى صباح ومساء[1]

وهو يودع أحلامه حتى دون أن يحاول شيئاً ، يودع كل أحلامه المركزة فى صاحبته التى هى رمز لتلك الآمال ، ويصطدم بواقع الحياة فلا يزداد إلا مرارة وبكاء وإمعاناً فى الانطواء والأحلام . (إن أبواب الحياة تغلق فى وجهه وقد نبذ خارج أسوارها . ثم رآهما يتحولان عن موقفهما ويتجهان نحوه ، ومرا به فى سلام . وأتبعهما عينيه وهم بالسير فى أثرهما ولكنه عدل عن ذلك فيما يشبه الضجر ، ولبث أمام معرض اللعب ، ينظر ولا يرى شيئاً . ونظر صوبهما مرة أخرى كأنما ليلقى عليها نظرة الوداع ، وكانت تبتعد دون توقف ، تختفى تارة وراء المارة وتبدو تارة ، ويرى منها جانب مرة ثم يرى جانب آخر ، وكان كل وتر من أوتار قلبه يغمغم « وداعاً » . ونفذ إلى أعماقه شعور العذاب مصحوباً بأنغام حزينة ليست بالجديدة ، فذكر بها حالا مماثلة ماضية دبت فى أعماقه جارة وراءها شتى ذكرياتهما المدغمة ، كأنها لحن غامض مثير لأجل الألم ، وهو فى الوقت نفسه لا يخلو من لذة خفية مبهمة) السكرية ص ٢٧٢ .

ومن المهم أن نذكر أن « كمال » لم يتزوج ، وهو يحاول أن يبرر ذلك التصرف أمام نفسه بأنه حب للحرية المطلقة وهروب من الأسر ، ولكن الواقع أنه هروب كامل من الحياة ، فحياته تنتهى وهو يلهث مولياً ظهره لواقعها ، مخلفاً وراءه جيلا جديداً كان رد فعل لهيام سابقه فى الخيال ، فهام هو بحثاً عن الحقيقة . وهكذا نسمع «إبراهيم شوكت» يقول «لياسين»:

---

(١) ديوان شكرى جـ ٣ ص ١٨ .

« فنحن نربى ونوجه وننصح ولكن كل ولد ينـدمج فى مكتبته ، وهى عالم مستقل عنا يزحمنافيه أناس غرباء لاندرى عنهم شيئاً ، فما عسى أن تصنع؟ » السكرية ص ٣٢ .

إنه جيل مثقف مضطرب ، ولعـل من السخرية المرة أن يكون فى الأسرة الواحدة الوفدى والإخوانى والشيوعى ، بل فى البيت الواحـد يكون هناك اجتماعان ، أحدهما المتعصبين لسيطرة الدين على الحيـاة ، والآخر لمن لا يؤمنون بالدين نفسه . ولم يعـد من الهين على الآباء أن يأمروا ويزجروا ذلك الجيل المتوثب المضطرب فيستسلم دون نقاش. فمن الطبيعى أن نجد « السيد أحمد عبـد الجواد » يستنكر استجابة « ابراهيم شوكت » لرغبة ولده الطالب ويزوجه. ومن الحق أن السيد عبد الجواد نفسه قد بدأ أسلوب حياته مع أبنائه يتغير بعد الثورة ، فهو يترك لولده « كمال » أن يحدد مستقبله حين يختار مدرسة المعلمين العليا ، التى لم يرض هو عنها ، وهو لا يملك إلا أن يناقش « ياسين » منـاقشة منطقية فى أمر زواجه من « مريم » .

ومن الطريف حقاً أن نجد الفارق بين تفكير جيلين فى مسألة تتعلق بعصب المجتمع ، « حين تقول نعيمة بحسرة : — وددت لو أتممت تعليمى ، كل البنات يتعلمن اليوم كالصبيان . فتقول أم حنفى باحتقار : — يتعلمن لأنهن لا يجدن العريس » . السكرية ص ٩ .

جيل جديد فى كل شىء ، نجـده أيضاً مصوراً فى « سـلطة الآباء » حين نقرأ :

« وقال الأبناء لآبائهم : إننا مخلوقون لزمان غير زمانك ، فاخضع لحـكم الزمان ، وقد نشأنا فى زمن حرية فى الآراء ، وحرية فى الأعمال ، وحرية فى التصرف ، لا كما نشأت فى جو من الطاعة والقيد والأسر والتقاليد ،

فحال أن يسع ثوبك الضيق أبداننا ، وتقاليدك العتيقة البالية نفوسنا » .

وإذا كان « السيد أحمد عبد الجواد » هو بطل الجيل الأول و « كمال » هو بطل الجيل الثانى ، فمن الطبيعى ألا نجد بطلا للجيل الثالث . جيل ملىء بالشجاعة وقوة الإرادة والرغبة فى العمل ، وكأنما قد أتى ليكون كفارة عن سلبية وجمود جيل مضى .

وإذا كان الجيل الأول قد هام باحثاً عن شهواته فى أكثر الأحيان ، وإذا كان الجيل الثانى قد هام فى أحلامه ، فإن الجيل الثالث كان هائماً يبحث عن بطل يجمع قواه المفرقة ليخلق منه قوة حقيقية ، فقد بدأت الأمور تبشر بتغيير شامل فى المجتمع .

« هذه الوجوه الكالحة البائسة هى الشعب . . . وهذا الرجل المنوط به خلاص الإنسانية ينبغى أن يعى موقفه التاريخى حتى ينهض . . . إن موقفا إنسانياً واحداً هو الذى جمعنا على اختلاف مشاربنا فى هذا المكان . السكرية ص ٣٠٩ .

وإذا عرفنا أن الطبيعيين يكرهون أن يختموا قصصهم بمغزى لها ، وأن الواقعيين الاشتراكيين يحتمون أن يثبت الكاتب فى تصويره للشر دواعى الأمل فى التخلص منه[1] ، أدركنا عمق التيار الواقعى الذى ينساب فى ثلاثية نجيب محفوظ من أولها إلى نهايتها .

---

(١) الأدب المقارن لغنيمى هلال ص ٢٩٥/٢٩٧ .